المحاضرة الحادية عشر: مقاومة الحاج أحمد باي بقسنطينة (1830-1848)

أ- مقاومة أحمد باي إثر احتلال الجزائر العاصمة.

ب- بداية ومراحل مقاومة أحمد باي للاستعمار الفرنسي بقسنطينة.

ت- نهاية مقاومة أحمد باي.

أ- مقاومة أحمد باي إثر احتلال الجزائر العاصمة:

كان الحاج أحمد باي من الأوائل الذين قاوموا الاستعمار الفرنسي، حيث عندما تأكدت الحملة الفرنسية على الجزائر بعث الداي حسين إلى أحمد باي يأمره بالقدوم إلى العاصمة عام 1830 لتقديمه "الدنوش" للداي في مدينة الجزائر، وقد أمره الباشا أيضا بتحصين ميناء عنابة وأخطره بالمشروع الفرنسي، وما دام لم يطلب منه الإتيان بالجيش معه فإنه لم يصحب معه سوى حوالي 400 فارس، وبعض أعيان قسنطينة وقوادها . وبعد وصول أحمد باي إلى العاصمة أعلمه الداي حسين بتفاصيل الحملة الفرنسية وطلب إليه أن يستعد لملاقاة الفرنسيين في سيدي فرج.

حضر الحاج أحمد مجلسا عسكريا قرب اسطاوالي شارك من خلاله في مناقشة طويلة بين أعضائه حول وسائل الدفاع، غير أن رأي أحمد باي تعارض مع رأي قائد الجيش ابراهيم آغا وسبق وأن أشرنا إلى تلك الخطة الدفاعية الذكية التي اقترحها الباي على قائد الجيش ابراهيم آغا لمواجهة الفرنسيين، والتي رفضت من طرف هذا الأخير.

شارك أحمد باي في المعارك الأولى في سيدي فرج واسطاوالي، هذه الأخيرة فقد فيها 200 من رجاله . وبعد استيلاء الفرنسيين على قلعة مولاي حسن انسحب الحاج أحمد إلى وادي القلعة ثم إلى عين الرباط (مصطفى باشا الآن) شرق العاصمة، ثم تابع طريقه شرقا في اتجاه قسنطينة، بينما انضم إليه أكثر من 1600 شخص من الأهالي الفارين من الجيش الفرنسي.

وفي طريقه إلى عاصمة بايلكه تلقى احمد باي رسالة من قائد الحملة الفرنسية الجنرال دي بورمون يطلب فيها منه أن يوقع على معاهدة الاستسلام ويعرض عليه اعتراف فرنسا به كما هو، إذا قبل دفع الجزية التي تعود دفعها الى الباشا . وكان جواب الحاج أحمد باي على هذا العرض هو أن السلطة توجد بيد جميع سكان قسنطينة ومقاطعاتها وسيستشيرهم في الموضوع بعد العودة الى المدينة.

ب- بداية مقاومة أحمد باي بشرق العاصمة:

عندما استقر أحمد باي في مدينة قسنطينة اجتمع بأعضاء الديوان وتباحث معهم في المسألة المتعلقة بعرض دي بورمون، فكان رد الجميع الرفض لأن قسنطينة تابعة لباشا الجزائر وتمتثل لأوامره، وهي بدورها تمتثل لأوامر اسطنبول، ولهذا لا بد من الكتابة إلى السلطان محمود الثاني والحصول على موافقته.

وعلى صعيد آخر شرع أحمد باي في التخلص من الجنود الإنكشاريين وتعويضها بعناصر وطنية، وبالتالي اعتمد أحمد باي في مقاومته للاحتلال الفرنسي على تأييد الجيش العربي الذي أخذ في تكوينه كونه أصبح لا يثق في الاتراك بعد الانقلاب الذي قاده هؤلاء ضده عندما كان في العاصمة . كما عمل على تحصين عاصمته قسنطينة، ثم قام ببناء ثكنات جديدة مستوعبا بها جنودا من الوطنيين الجزائريين.

ت- مراحل مقاومته:

1- المرحلة الأولى: 1830 -1837: يمكن تلخيص أهم الأحداث المرتبطة بهذه المرحلة فيما يلي:

- محاولات أحمد باي العديدة لإقناع السلطان العثماني بالاعتراف به واليا على الجزائر، وإمداده بمساعدات عسكرية يستعين بها على قتال الفرنسيين، لكنه لم يحظ منه سوى بوعود وتشجيعات، وذلك خوفا من فرنسا التي لم يتردد سفيرها في اسطنبول في الاعلان أن بلاده ستعبر توجيه رتبة الباشا إلى باي قسنطينة بمثابة إعلان حرب عليها.

ففي إحدى محاولات أحمد باي في الحصول على النجدة من السلطان العثماني رد عليه هذا الأخير بأن " السلطان في حالة سلم مع الدول المسيحية ولا يمكنه إعلان الحرب على فرنسا بسبب قضية الجزائر، أو بالأحرى قضية قسنطينة ولكنه طلب من الحاج أحمد أن يستمر في نضاله ضد الفرنسيين وأن لا يوقع أي صلح معهم إلا بعد مشاورته."

يذكر بعض المؤرخين أن الحاج أحمد باي لم ييأس من بعث رسائل عبر وفوده الى السلطان العثماني يلح فيها على طلب المساعدة المادية، مؤكدا على أنه مستعد للتضحية من أجل الدين، ومشيرا في رسائله كذلك أن الفرنسيين يقتربون منه يوما بعد يوم، وكان السلطان في كل مرة يرد عليه بأن " السلطان لم ينسهم وأن عليهم بالصبر والإيمان، وأن السلطان يعمل على إبقاء اقليم قسنطينة تحت طاعته، وكذا أن عليهم أن لا يقبلوا أي شرط بدون موافقته .

يذكر بعض المؤرخين أن أحمد باي عندما انتصر على القوات الفرنسية سنة 1836 بعث برسالة أخرى الى السلطان العثماني يشرح فيها وقائع الحادثة ويطلب منه المساعدة، فلبى السلطان هذه المرة نداءه وأرسل له سنة 1837 عن طريق تونس أربع سفن حربية محملة بالجنود الأتراك والمدفعية، لكن باي تونس خوفا من فرنسا لم يسمح إلا بنزول المدافع ولم يسلمها لأحمد باي.

- كان احتلال فرنسا لعنابة أهم موانئ إقليم قسنطينة عام 1832 سببا في توتر مستمر بين فرنسا والحاج أحمد . حيث شرعت قوات الاحتلال بقيادة يوسف المملوك بالإغارة على القبائل الجزائرية والتنكيل بها ونهبها، وقد حاول علي بن عيسى خليفة أحمد باي استرجاع عنابة في جوان 1833 لكنه فشل.

- حاولت فرنسا جاهدة أن تقضي على مقاومة الحاج أحمد باي، فسعت إلى التفاوض معه عدة مرات، لكنها كلها محاولات باءت بالفشل، حيث كان أحمد باي يصر دائما على موقفه الرافض توقيع أي معاهدة استسلام مع العدو. وكانت أولى هذه المفاوضات مع الجنرال دي بورمون سنة 1830 – كما سبق الذكر –

تلتها المحاولة الفاشلة للجينرال كلوزال الذي بعث له برسالة يطلب فيها منه تعيينه بايا على قسنطينة باسم ملك الفرنسيين شريطة أن يدفع الجزية (اللازمة) لفرنسا، ولكن الحاج أحمد باي كان يعتقد أن سلطاته مستمدة من الشعب ومن السلطان العثماني جمع ديوانه واستشاره، فكان رد الديوان الرفض القاطع.

ولما قدم " الدوق دي روفيقو " إلى الجزائر لتولي منصب الحاكم العام في 17 ديسمبر 1831 سعى هو الآخر للتفاوض معه وجعله يعترف بالسيادة الفرنسية ويستسلم لفرنسا، وللمرة الثالثة تفشل المفاوضات مع أحمد باي الذي بعث برسالة مؤرخة في 14 ديسمبر 1832 إلى حمدان خوجة ردا على المهمة التي كلفه بها الدوق قائلا فيها: " ...لقد وقع السؤال منهم سابقا (الفرنسيون) من أول الأمر وتكرر صدور الجواب منا بعدم الإمكان ...وبينا وجه تعسب الأمر وتعسره وعدم إمكانه وتعزره، سابقا ولاحقا ..."

وبينما كان الفرنسيون يستعدون لجولة أخرى ضد قسنطينة حاولوا فتح المفاوضات من جديد مع أحمد باي، وهذه المرة كان يمثل الطرف الفرنسي الجنرال " دامريمون " عبر وسيطين يهوديين، ومرة أخرى يرفض أحمد باي اقتراحات الفرنسيين التي تتمثل في دفع مليونين من الفرنكات ضريبة الحرب وإقامة حامية فرنسية في قصبة قسنطينة، في مقابل أن تعترف به فرنسا بايا على الاقليم، باستثناء المناطق التي تحتلها هي .

وعندما خلف الماريشال فالي الجينرال دامريمون بعد مقتل هذا الأخير، حاول فالي أن يتفاوض من جديد مع الباي أحمد، فكان يعده ويمنيه بإعادة منصبه كباي للحيلولة دون وحدته مع الأمير عبد القادر . لكن أحمد باي ظل متمسكا بموقفه الرافض للاستسلام .

- **الغزو الفرنسي الأول لقسنطينة 1836:**

عندما تمكنت فرنسا من احتلال ميناء عنابة، ويئست من ارغام أحمد باي على الاستسلام، بدأت تهدده بالإطاحة به، ثم قررت أن تستولي على عاصمته وتضع حدا لمقاومته . ومن أجل ذلك جهزت حملة قوامها نحو 8700 رجلا، خرجت من عنابة يوم 8 نوفمبر 1836 بقيادة كلوزيل.

ومن جهته جند أحمد باي 1500 رجل من المشاة و5000 من الفرسان واستعد لمواجهة الجيش الفرنسي في واد الكلاب لكنه انسحب إلى مدينة قسنطينة عندما شعر أنه غير قادر على محاربتهم لأن جيشهم كان أقوى.

على صعيد آخر قسم أحمد باي قواته إلى قسمين: قسم يضم ألف رجل (1000) مزودين بثلاثين (30) مدفعا على الأسوار وفي القصبة، وكلف هذا القسم الذي كان تحت قيادة خليفته ابن عيسى كلف بالدفاع عن المدينة من الداخل . أما القسم الثاني الذي كان بقيادة الباي ويتكون من 5000 فارس و1500 من المشاة المتطوعين ومدافع ميدان خفيف، فتولى محاولة عرقلة القوات الغازية (دون نجاح)، وضربها خارج المدينة من الخلف، ما يجعل تلك القوة عند بلوغها أسوار قسنطينة بين نارين.

بلغت الحملة الفرنسية قسنطينة يوم 21 نوفمبر 1836 منهكة جراء الغارات التي استهدفتها على طول الطريق، وتهاطل الأمطار والثلوج غير المعهودة في تلك الفترة من العام، والتي عرقلت تقدمها.

ضربت القوات الفرنسية على قسنطينة حصار دام ثلاثة أيام (21-22-23 نوفمبر)، وفي اليوم التالي رفع الغزاة حصارهم بعدما تكبدوا خسائر جسيمة وأوشكت ذخائرهم على النفاذ، وانسحبوا الى عنابة منهزمين . وقد دفعت تلك الهزيمة الحكومة الفرنسية إلى عزل كلوزيل من منصبه في 13 جانفي 1837، وتعيين الجنرال " دامريمون " (Damrémont) خلفا له، واعداد حملة غزو ثانية.

- **الغزو الثاني لقسنطينة 1837:**

بعد إبرام الفرنسيين معاهدة التافنة مع الأمير عبد القادر، تفرغوا مجددا لقتال أحمد باي، فسيروا حملة كبيرة إلى قسنطينة بقيادة الحاكم العام " دامريمون " ضمت 20.400 رجل، ومدفعية قوية بقيادة الجنرال فالي (Valée)، وفرقة هندسة عالية التجهيز.

وبالمقابل كان أحمد باي مستعدا للقتال مرة أخرى، حيث جمع شيوخ القبائل والقواد وجند منهم 5000 فارس و2000 راجل، بالإضافة إلى الجيش النظامي الذي يعمل بأمره شخصيا.

هاجم أحمد باي طلائع الحملة الغازية عند مجاز عمار (قرب قالمة) ثلاثة أيام، ولما عجز عن دحرها، قرر اعادة تطبيق خطة حرب السنة الماضية التي ساعدته على الانتصار (مواجهة الجنود الفرنسيين من داخل المدينة المحصنة وضربهم من الخلف)، لكن في هذه المرة لم تنجح لأن القوات الفرنسية كانت أكثر استعدادا وأوفر عددا وعدة من المرة السابقة.

وصلت الحملة الفرنسية إلى قسنطينة يوم 5 أكتوبر 1837 وحاصرتها، وأمطرت القوات أسوار المدينة بوابل لا يكاد ينقطع من القنابل، مركزين على أجزاء من الأسوار الجنوبية الغربية . ومن الثغرات التي أحدثتها الضربات في أسوار المدينة دخل الغزاة قسنطينة في 13 أكتوبر 1837،

بينما كان المواطنون يحاربونهم من دار إلى دار ومن شار إلى شارع، وأثناء هذه الجولة قتل دامريمون القائد العام للجيش الفرنسي فتولى مكانه الجنرال فالي، كما قتل البجاوي خليفة الحاج أحمد في قسنطينة وتكبد الحاج أحمد خسائر كبيرة وهلك

أحسن جنده. أما ابن عيسى الذراع اليمنى لأحمد باي فقد تخلى عنه وعرض خدماته على الفرنسيين الذين خسروا الجنود والعتاد وكانوا يعانون من قلة المؤونة.

وبعد سقوط قسنطينة اختل الغزاة سكيكدة في 8 أكتوبر 1838 وجيجل 13 ماي 1839، فأكملوا سيطرتهم على الساحل الشرقي للجزائر.

2- المرحلة الثانية 1837-1848: رغم ضياع عاصمة بايلك الشرق إلا أن الحاج أحمد باي أبى إلقاء السلاح والاستسلام للعدو، رغم أن فرنسا عرضت عليه الأمان وحمله إلى بلاد اسلامية فرفض. ومن بين الأحداث التي ميزت هذه الفترة نذكر ما يلي:

- تركزت جهود أحمد باي في هذه المرحلة على محاربة الفرنسيين وخصومه الجزائريين، فبالنسبة إلى خطته الجديدة لمقاومة الفرنسيين اقترح بقطع خط التموين عليهم الرابط بين عنابة وقسنطينة، لكن صهره اعترض على هذه الخطة وأراد أن يحارب فرحات ابن سعيد أولا ثم الفرنسيين.

- امتثل أحمد باي لرأي خاله بوعزيز بن قانة وانسحب إلى الزيبان لمواجهة خصمه فرحات بن سعيد الذي كان يحكم بسكرة، فاستهدفه بن سعيد في الطريق لكن احمد باي تمكن من هزيمته وإزاحته من منصبه، حكم الحاج أحمد بسكرة بضعة أشهر إلى أن انتزعها منه خليفة الأمير عبد القادر في ماي 1838.

وفي هذا السياق يقول أحمد باي في مذكراته " ... وعليه انضممت إلى رأي بوعزيز ولو أن الله هداني في ذلك الوقت، لفهمت أنه يريد جلبي إلى الصحراء ليأخذ أموالي عن آخرها، ...وأكرر قد اتبعت رأي بوعزيز وكان ذلك هو مصابي الأعظم ."

- ظل الحاج أحمد باي يقاوم باعتماده على حرب العصابات، فكان يتنقل من قبيلة إلى أخرى، ومن الجبل إلى الصحراء، في كل من بسكرة، نواحي عين البيضاء، النمامشة، الأوراس وأولاد سلطان غربي باتنة الحضنة ... محاولا تعبئة القبائل لمواصلة الجهاد ومهاجما المراكز العسكرية الفرنسية إلى غاية صيف 1848.

- مراسلة الأمير عبد القادر لأحمد باي بهدف توحيد صفوف المقاومة لكنه رفض ذلك، وذلك حسب ما جاء في تقرير الجنرال " قالبوا " الذي بعث به إلى الحاكم العام بالجزائر، بتاريخ 26 أوت 1839.

- اصرار العدو على استسلام أحمد باي عن طريق التفاوض معه من جديد، حيث في سنة 1838 بعث الجينرال " نيقريي " رسالة إلى أحمد باي جاء فيها: " ...إنك تحاول (الحاج أحمد) إثارة الجماهير ...وعليه ينبغي أن أقاتلك أينما وجدتك ...إن استسلامك الكلي، يمكن وحده أن ينقذك من الهلاك ...وليس لك إلا أن تثق في شرف فرنسا ...بهذا الشرط أضمن لك الأمن ولعائلتك وأملاكك..."

- انتهاء مقاومة الحاج أحمد باي للاحتلال الفرنسي سنة 1848 بعد أن دامت 18 سنة، حيث عرضت عليه السلطات الفرنسية في باتنة وبسكرة الاستسلام وإعادة كل أشيائه إليه وأخذه ليعيش في بلاد إسلامية، فقبل هذه المرة العرض بعد أن تقدم في السن، وقل أنصاره وفقد موارده المالية، وتكاثر المتآمرون عليه من الجزائريين، وحاصره الفرنسيون بقوات متخصصة في حرب الجبال في معقله بجبل " أحمر خدو " (الأوراس) بالتعاون مع عملائهم.

يذكر أحمد باي في مذكراته أنه وضع شروطا مقابل الاستسلام وهي: استرجاع أملاكه وثرواته ثم السماح له بالسفر تحت رعاية فرنسا إلى بلد إسلامي. ويقول في هذا الصدد " ...جئت إلى الفرنسيين راضيا تحدوني إرادة صادقة في وضع حد للحرب الطويلة التي ظلت قائمة بيني وبينهم، وذلك بإبرام اتفاق متين وأمان مشرف."

- بعد استسلام أحمد باي يوم 5 جوان 1848 الى الرائد " دوسان جرمان " توجه إلى بسكرة أين أقام فيها ثلاثة أيام، ثم إلى باتنة أين أمضى فيها يومين، وفي اليوم الثالث توجه إلى قسنطينة . وفي أثناء استحوضته أفكار متعددة، حيث يقول أحمد باي " إنني أذهب بلا أملاك ولا قوة إلى المدينة التي رأتني سيدا في أوج عزتي وحيث مارست سلطة السيادة . ولكن الله كيف نفسي وتجلت إرادته، وأي إنسان يستطيع الافلات من أيدي القدر فسبحان الله وجل جلاله." ومن قسنطينة التي بقي فيها ثلاثة أيام توجه إلى سكيكدة ثم إلى العاصمة أين خصصت له السلطات الفرنسية مسكنا أقام فيه مع أسرته وخدمه ومنحة سنوية قدرها 12 ألف فرنك، لكنها لم تسمح له بالهجرة وتوفي سنة 1850 .

أسباب فشل مقاومة أحمد باي:

- اجتمعت عدة عوامل ساهمت في إضعاف مقاومة أحمد باي، نوجزها في النقاط التالية:

1- موت أو تخلي أحد قواده عنه وخلافه مع خاله بوعزيز.

2- محاولة الامير علد القادر مد نفوذه الى اقليم قسنطينة بتوجيه نداء إلى أعيانه وتعيين خلفاء له فيه.

3- غيرة باي تونس منه الذي كان يكيد له لدى القبائل المجاورة ولدى السلطان العثماني.

4- تحريض فرنسا عليه القبائل وخلق له الصعوبات أينما حل، لأنها كانت ترى في وجوده بين العرب علامة خطر.

5- سلبية السلطان الذي كان الحاج أحمد يعتمد عليه حتى بعد سقوطه.

بالإضافة إلى الأخطاء التي ارتكبها أحمد باي وكانت من أسباب فشله:

- محاباته لقرابته وأوليائه على حساب الصالح العام، فمثلا انتزع مشيخة عرب الزيبان من فرحات بن سعيد، وإسنادها إلى خاله بوعزيز بن قانة الذي أصبح فيما بعد من كبار عملاء فرنسا التي عينته شيخ العرب.
- غدره بمن أعانوه على إحباط مؤامرة الانكشارية عام 1830.

- اعلانه الحرب على عائلة بوعكاز غداة ضياع قسنطينة عام 1837 لتحقيق أغراض عائلية في الجنوب، بدلا من مناجزة الفرنسيين في الشمال .

الجدير بالذكر أن أحمد باي واجه أثناء مقاومته للاحتلال الفرنسي عدة جبهات:

- **جبهة ضد فرنسا:** التي جندت جميع قواتها للقضاء غلى مقاومته، كما أنها سعت للاستمالة شيوخ القبائل مقابل منحهم مناصب إدارية ونفوذا على أتباعهم وتأمين أملاكهم.
- **جبهة ضد تونس:** حيث نجح كلوزال في خلق توتر بين الجزائر وتونس وذلك بسبب المعاهدة التي وقعها مع باي تونس في 18 أكتوبر 1830 والتي نصت على عزل أحمد باي ومنح أحد أشقاء باي تونس الخلافة على بايلك قسنطينة. ولكن فرنسا لم توافق على هذه المعاهدة وبعد توقيع المعاهدة انتشرت الرسائل في اقليم قسنطينة من باي تونس تدعو الناس إلى الثورة ضد الحاج أحمد وتعلن انضمام قسنطينة إلى تونس. وكان رد أحمد باي بأن باي تونس ليس من حقه المطالبة بقسنطينة وأن أهلها راضون بحكمه .
- **جبهة ضد فرحات بن سعيد:** شيخ العرب الذي عزله الحاج أحمد وانتزع منه مشيخة عرب الزيبان واسندها إلى خاله بوعزيز بن قانة الذي أصبح فيما بعد من كبار عملاء فرنسا.
- **جبهة ضد باي التيطري بومزراق:** الذي أعلن نفسه "باشا الجزائر" خلفا لحسين باشا وطالب الحاج أحمد الاعتراف به.

المراجع المعتمدة في المحاضرة السادسة :

1- عمار بوحوش، **التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962**، ط 1، بيروت، دار العرب الاسلامي، 1997.

2- عمار عمورة، **موجز في تاريخ الجزائر**، ط 1، الجزائر، دار ريحانة، 2002.

3- صالح فركوس، **المختصر في تاريخ الجزائر (من عهد الفينيقيين إلى خروج الفرنسيين 814 ق.م – 1962 م)**، (ب.ط)، دار العلوم للنشر والتوزيع، (ب.س.ط).

4- أبو القاسم سعد الله، **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)**، ط 3، الجزائر، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، 1982.

5- بشير بلاح، **تاريخ الجزائر المعاصر (1830–1989)**، ج 1، الجزائر، دار المعرفة، (ب.س .ط).

6- صالح فركوس، **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر (1830–1925)**، (ب . ط)، الجزائر، مديرية النشر لجامعة 08 ماي 1945 قالمة، 2010.

7- مذكرات أحمد باي.